الرسائل الديوانية عند الصفدي من خلال كتابه أعيان العصر وأعوان النصر

كرم محمد عبد الكريم (*)

مقدمة

الحمد لله الذي شرفنا بنعمة الإسلام، وهدانا إلى الإيمان والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين بعثه الله من بين العرب للناس أجمعين، أما بعد

فإنّ الاشتغال بالعلم من أعظم الطاعات وأفضل القربات، لذا خصّه الله تعالى بعناية فائقة فأثنى على العلماء بقوله تعالى" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ".

وإنّ الأدب العربيّ بما ضمّه من رموز شاعرة وناثرة جدير بأن نستقرئ منه ما تيسّر لنا من هذه الرموز، وبخاصة من أغفلتهم الأقلام وأهملتهم الأبحاث ومنهم الشعراء والنثّار. كما أن الحضارة العربية الأدبية امتازت وتباينت من عصر إلى عصر، فسمت في عصر واستقرّت في آخر.

وإن المكتبة العربية عامرة بكتب التراث التي تحتاج إلى من يكشف كنوزها الأدبية وينشر ما فيها من وقفات أدبية ونقدية يحتاج إليها المهتمون بالدراسات الأدبية والنقدية، وقد وقع اختياري على مصدر مهم من مصادر القرن الثامن الهجري، وهو كتاب (أعيان العصر وأعوان النصر) لصلاح الدين الصفدي، ذلك المصدر المهم الذي يترجم للأعلام الذين أدركهم الصفدي أو لقيهم في حياته، أو أخذ عنهم، أو كانوا في زمنه في جميع أنحاء الخلافة الإسلامية وقد ضم الكتاب بين دفتيه كثيرًا من الشعراء والأدباء والعلماء في تلك الفترة.

ورأيت بعد القراءة المتأنية لهذا الكتاب أنه مصدر مهم لتلك الفترة من تاريخنا العربي، وهو أيضًا مصدر مهم لأدب الصفدي ؛ فقد أورد فيه قدرًا كبيرًا من أشعاره ومساجلاته ومعارضاته وألغازه وموشحاته ورسائله وتوقيعاته، كما أنه بث فيه كثيرًا من آرائه النقدية وملاحظاته على الشعراء والأدباء، مما يظهر منهجه النقدي ويكشف بعض جوانبه.

(*) باحث دكتوراه – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: "كتاب أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين الصفدى توفى ٧٦٤هـ دراسة أدبية نقدية". وتحت إشراف: أ.د/ سهام راشد عثمان ربيع – كلية الآداب- جامعة سوهاج & د. زياد محمد عبدالعال الجبالى – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

وأردت من خلال هذا الكتاب أنه أظهر جانبًا من الأدب في العصر المملوكي الذي طالما تعرض له المدعون بالنقد والتجريح، وألصقوا به كثيرًا من التهم، وكانت أحكامهم تتسم بالتعميم، فقد وصف بأنه أدب الصنعة والزخارف، والنكتة والتحسين .

وهذا بحث بعنوان الرسائل الديوانية من خلال كتاب أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين الصفدي توفي ٧٦٤ هـ.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تنبع أهمية البحث من كونه يتطرق لموضوع جديد لم يدرس من قبل - في حدود علمي – فمن خلال البحث والتقصي عرفت أن كتاب أعيان العصر لم يدرس من الناحية الأدبية.

ومما دفعني لاختيار هذا الموضوع :

١. الحاجة إلى الكشف عن خزائن كتاب أعيان العصر الأدبية .
٢. رغبتي في التعرف على العصر المملوكي لا سيما الناحية الأدبية من خلال التعرض لأحد أعلامه وهو صلاح الدين الصفدي وكتابه أعيان العصر.

منهج الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على المنهج الوصفي فسوف أقوم بعرض المادة الأدبية في الكتاب ثم تحليلها . وأسأل الله عز وجل التوفيق

الرسائل الديوانية:

يُعرّف محمود رزق سليم الرسائل الديوانية " بتلك التي كان يُدبّجها كتاب ديوان الإنشاء في المناسبات الرسمية للدولة، جارية على لسان السلطان، أو أمر منه"[١] وهذا التعريف يقتصر على رسائل ديوان الإنشاء المملوكي، أما بالنسبة لمصطلح الرسائل الديوانية فقد وضع فايز القيسي تعريفًا يكاد يكون جامعًا شاملاً في هذا الأمر، ألا هو قوله " هي تلك الرسائل التي تعالج الإدارة والتنظيم الداخلي، الذي يتعلق بالحياة العامة، وشئون الرعية" [٢] وإذا ما عاودنا النظر في تعريف الرسائل الديوانية، الذي أورده محمود رزق سليم، فإننا نجد

(١) سليم: عصر السلاطين المماليك، ق١ ج٣، ص ١١٢.
(٢) القيسي، فايز عبد النبي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، داب البشير للنشر والتوزيع، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص ١١١.

عدة أمور تحتاج إلى توضيح، فأولها: إنّ هذه الرسائل يدبّجها كتّاب الإنشاء، ويتألف ديوان الإنشاء من:-

- رئيسه، ويسمى صاحب الديّوان أو كاتب السِّرِّ.
- كُتّاب الدّست.
- كُتّاب الدرَج.
- ونحن نعلم أن الصفدي تدرج في هذه المراحل. من كاتب الدرج في صفد والقاهرة إلى كاتب السِّرِّ في الرحبة؛ لذا فإنه ضليعٌ في كتابة تلك الرسائل والعلم بفنونها.وثاني هذه الأمور: إنها تكتب في المناسبات الرسمية، وعليه فإنها تنحو منحى رسميًا له طابعه الخاص والمميز.

وثالثهما: - إنها جارية على لسان السلطان، أو أمر منه، وهذا يدلنا على أنها رسائل تصدر بأمر الحاكم، وليس بأمر كاتب السِّرِّ، أو من هو أدنى منه، ولكنّ العبارات وترتيب الأفكار والمعاني من صناعة الكاتب، وهذا ما يقوله القلقشندي: " فأمّا كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات، والمسامحات، والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن،والأمانات، والأيمان، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها" [1] . وبما أنّ الكاتب له حرّية التصرف في قوالب الألفاظ، والتركيب في تلك الرسائل، فإنّ الكتّاب حينئذٍ يختلفون في مواهبهم الكتابية، وقدرتهم على التعبير، لذا نرى تميّز بعضهم في هذه الصناعة، والصلاح الصفدي له الباع الطويل في إنشاء مثل تلك الرسائل، نظرًا لموهبته وطول الفترة التي قضاها في ديوان الإنشاء.

ومن أشهر تلك الرسائل كما يشير محمود رزق سليم:

" الرسائل الملوكية وما يتص بها من مهادنات، ويمين، ومفاسخات، ومنها العهود والمبايعات، ومنها التقاليد، والتواقيع، والمناشير، والمراسيم، والمساميح، ومنها البشارات، ومنها الصداق، فهذه أهم أنواعها"[2]

([1]) القلقشندي: صبح الأعشى، ٨٤/١.

([2]) سليم: عصر سلاطين المماليك،، ق١ ج٣، ص١١٣.

أما أبرز تلك الرسائل في كتاب أعيان العصر والتي برز فيها الصفدي فهي التقاليد، والتواقيع، والمراسيم، والمناشير، والبشارات، وقد أنشأ الصفدي العديد منها أثناء عمله في ديوان الإنشاء: -

التقاليد:

" جمع تقليد؛ يقال قلدته أمر كذا، إذا وليته إياه" [١] يعرّف محمود رزق سليم التقاليد بقوله: " من أهم الرسائل الديوانية والتقليد بمثابة أمر معين يصدر إلى موظفٍ من كبار موظفي الدولة، أو تسجيل لهذا الأمر، وإذانٌ به، وتحديد له، ويكتب على لسان السلطان، بقلم صاحب ديوان الإنشاء، أو أحد منشئي ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية الشريفة" [٢] والرسائل الديوانية بما فيها التقاليد قمّة في الدقة، ف ي مضمونها وشكلها،فهي تتخذ شكلاً معينًا، يقول القلقشندي: " ثم التقليد يشتمل على طرّة، ومتن" [٣] ويرى شهاب الدين محمود الحلبي أنّ التقليد أربعة أقسام فيقول:

" ويحسن أن يكون الكلام منقسمًا في التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير، فالربع الأول الخطبة، والثاني ذكر موقع الإنعام في حق المقلّد، وذكر الرتبة وتفخيم أمرها، والثالث في أوصاف المقلّد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة، ويناسب حاله في عدل، وسياسة أو مهابة، وبُعد صيت أو سمعة، وشجاعة، إن كان نائبًا، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير، وعمارة البلاد، وصلاح الأحوال ، وما يناسب ذلك أن يكون وزيرًا، وكذلك في كل رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا، وهذه هي القاعدة في مثل ذلك، ومنها يراعي المناسبة، وما تقتضيه الحال، فلا يعطي أحدًا فوق حقه، ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله"[٤].

ومن مظاهر الدقة في تلك التقاليد أنها لا تكتب إلا لصاحب ديوان الإنشاء، وقضاة القضاة، ونظار الأوقاف، والوزراء، وبعض نوّاب السلطنة، وبعض أمراء النواحي، والمملكين بها، والموالين للسلطان، وكتاب السِّرِّ[٥].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١ ، ص١٠١.
(٢) سليم: عصر سلاطين المماليك، ق١ ج٣، ص ١٣٢.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١ ، ص١٠١.
(٤) الحلبي، شهاب الدين محمود (٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م) : حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ص ٣٦٨.
(٥) انظر سليم: عصر السلاطين المماليك، ق١ ج١، ص ١٣٢.

ويدعم هذا الرأي قول ابن فضل الله العمري: " ولا تكون إلا لكفلاء الملك، كأكابر النواب، والوزراء ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة " [1].

وهناك شروط يجب أن يلتزم بها كاتب التقليد: " فلا يستفتح إلا بالخطب بالحمد الله، وليس إلا ثم يقال بعدها: أما بعد، ثم يذكر ما يسنح من حال الولاية، وحال المولّي، وحسن الفكر فيمن يصلح، وأنه لم يرّ أحقَّ من ذلك المولَى" [2].

ولصلاح الدين الصفدي تقليدٌ كتبه عن السلطان بتعيين الأمير أيدمر الزراق في نيابة غزة: " الحمد لله الذي زاد أولياء دولتنا القاهرة عزًا، وجعل أصفياء أيامنا الزهراء كُفاة تعود الممالك بهم حرزًا، وجرد من أنصارنا كل نصل راع حدًا، وراق زهرًا، وو فق آراءنا الشريفة لأن يكون من نعتمد عليه يستند إليه العزّ ويعزى" [3].

وبما أن غرض التقليد تعيين أمير، فهذا يتطلب من الكاتب أن يحسن اختيار العبارات التي تنمّ عن الحال، فالصفدي بدأ بالحمد وجعله مقرونًا بأولياء الدولة وأصفيائها، فهم عزٌ لهذه الدولة القاهرة، ونورٌ مزهر لأيامها، وهم حُماتها من كلّ خطر، وسأل الله العلي العظيم أن يكون مَنْ ولي أمر تلك الممالك أن يستند إليه العزّ، ويعتمد عليه في تلك المهمة، وهذا الأمر من براعة الاستهلال.

وبعد الحمد يشهد بالوحدانية، ويصلي على رسوله الكريم، وعلى الصحابة الأبرار ، الذين تلألآت أنوارهم في الآفاق، آملاً أن يقتدي النائب بسيرتهم الطيبة، وينشر نور العدل في ولايته.

وبعد الخطبة التي روعي فيها براعة الاستهلال – ولا غرو فالصفدي يعرف ذلك جيدًا – يشرع في تعريف ذلك المكان الذي سيوجّه المولَى إليه، وهي غزّة، فيقول: " فإنَّ ممالكنا الشريفة، منها ما هو عالي المكانة داني المكان، موفر الاستكانة .. وقد جاور الأرض المقدسة، وكفاها فخرًا بما يروي عنها أن

---

(1) العمري، أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ١١٢.

(2) المرجع السابق: ص ١١٥.

(3) الصفدي: أعيان العصر، ٦٦٣/١.

الإمام الشافعي رضي الله عنه منها"[١]. فهذه عبارات قليلة الألفاظ كثيرة المعاني ففي هذه العبارات استطاع الصفدي أن يقدم وصفًا لغزة من حيث مكانها ومكانتها.

أما بالنسبة لطول الخطبة وقصرها، فقد كان لابن فضل الله العمري رأيّ يخالف رأي الشيخ شهاب الدين الحلبي، فيقول: " واعلم أنّ شيخنا شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قسّم مقدار التقليد، أو التوقيع تقسيمًا لا أرضاه، والذي أراه اختصار مقدار التحميدة التي في الخطبة والخطبة مطلقًا وإطالة ما بعد ذلك"[٢].

والناظر في التقليد الذي أنشأه الصفدي يجد الإطناب في خطبته، والإطالة فيها، وهكذا يظهر أثر الشيخ في تلميذه، فالصفدي مدينٌ للحلبي في هذه الكتابة، حيث كان الصفدي يعمل إلى جانب الحلبي في ديوان الإنشاء.

وكما هو مقرر للكاتب انْ يلتزم به بعد الخطبة من " ذكر ما يسنح من حال الولاية، وحال المولّي، وحسن الفكر فيمن يصلح " [٣] فقد التزم بذلك الصفدي فقال: " ولما كان المجلس العالي الأميري وألقابه ونعوته من أعيان هذه الدولة، وأعوان هذه الأيام التي كان اعتمادها على الجيش في المقام الأول، " فما شددنا السيف إلا لنصرة الشرع" ولا نعتقد إلا أنه الأصل وبقية السياسات فرع، والعسكر المنصور فهم منا بمرأى ومسمع،وعنايتنا بهم تامة تمنحهم الخير وللشر تدفع، فليراع حالهم ويرعها، ويتبّع أصول أمورهم وفرعها" [٤].

وفي نهاية التقليد " يختم بالدعاء للمولى بالإعانة، أو التأييد، أو المزيد، أو التوفيق، أو ما يجري هذا المجرى" [٥] فيختم الصفدي تقليده السالف الذكر فيقول: " والله يزيده مما أولاه، ويفيده الإعانة على ما ولاه" [٦]، وبعد الدعاء يقال في التقليد: " وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه" [٧]

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ٦٦٣/١.
(٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٧.
(٣) المرجع السابق: ص ١١٥.
(٤) المرجع السابق: ص ٦٦٥/١.
(٥) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٦.
(٦) الصفدي أعيان العصر، ١/ ٦٦٦.
(٧) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٦.

وعلى هذا تكون عبارة الصفدي: " والخط الشريف – أعلاه الله تعالى – أعلاه حجّة ثبوت العمل بما اقتضاه" [١].

وللصفدي تقليدٌ آخر أنشأه للناصر في تولية ابن جملة قاضي الشام، فجاء في خطبة التقليد " ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ندّخرها ليوم القضاء والفصل، ونعلم أنها أصل الإيمان، وما سواها فرع، والقياس ردّ فرع إلى أصل، ونعتمد على بركات فضلها في الأمر، والنهي، والقطع، والوصل... ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خير من قضى ومضى وأعدل من مضى" [٢].

فالناظر إلى تلك الفقرة يجدها تفيض بألفاظ الفقه، والقضاء، من أصل وفرع، وقياس والقضاء، والفصل، والأمر والنهي، والقطع، والوصل، وهذا الأمر له مغزاه وهو من باب براعة الاستهلال الذي نبّه الحلبي إليه، فقال: " ويجب أن تراعي في التقاليد، والتواقيع، والمناشير أمور منها براعة الاستهلال"[٣].

وللصفدي كثيرٌ من التقاليد، منها ما هو محقق كما ورد في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر ومنها ما هو مخطوط.

ويشير محمود رزق سليم إلى أن التقاليد " ربمّا كانت أكثر رسائل الديوان صدورًا، لتواتر حاجة الدولة إلى كبار الموظفين مع كثرة ما يتعرضون له من نقل، أو عزل" [٤].

التواقيع:

" جمع توقيع، وهو اسم لما يكتب في حواشي القصص، كخط الخليفة، أو الوزير في الزمن المتقدم ، ثم غلب حتى صار عَلمًا على نوع خاص مما يكتب في الولايات وغيرها، وقد خُصّت فئة المتعممين من أرباب الوظائف الدينية والديوانية، ولا يكتب لأرباب السيوف منها إلا القليل، وعنوانها توقيع شريف لفلان بكذا" [٥].

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ٦٦٦/١.
(٢) المرجع السابق: ٥٩٨/٥.
(٣) الحلبي: حسن التواصل إلى صناعة الترسل، ص ٣٦٨.
(٤) سليم: عصر سلاطين المماليك، ق١ ج٣، ص ١٣٢.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ١١٤.

ويرى فايز القيسي أن التوقيعات كان يردّ بها أمراء الأندلس، وحكامها على الرسائل، والشكاوى التي تُرفع إليهم[١].

ويذكر محمود رزق سليم أن معنى التوقيع بقي له بقية من معناه عند العباسيين: " فقد أطلق لفظ الموقعين على كتاب الدست الشريف، وذلك لأنهم يوقعون على حواشي القصص، ونحوها في مجلس السلطان" [٢].

وإلى جانب ذلك المعنى الذي أشار إليه محمود رزق، فقد كان له معنى خاص عند المماليك كما مضى في تعريف القلقشندي، فهو علمٌ على نوع خاص من المكاتبات التي يصدرها ديوان الإنشاء، ويعقب الكاتب محمود رزق بقوله: " أنَّ التوقيع في عصر المماليك أيضًا أطلق على أحد ضروب الرسائل، والمكاتبات الديوانية" [٣].

ويبين العمري الوجوه التي تكتب فيها التواقيع: " فهي لعامة أرباب الوظائف، جليلها وحقيرها، وكبيرها وصغيرها، حتى النواب اللاحقين بشأو الكبار من دونهم" [٤]. ويستدرك العمري على عباراته بقوله: " وعندي في هذا نظر والذي أرى أن يكون لمن لحق بشأو الكبار منهم تفاويض، وللصغار مراسيم، ولأدنى الطبقات منهم تواقيع، لميزة السيوف على الأقلام" [٥].

ويرى عمر باشا أنّ التواقيع من المظاهر الحضارية التي تعكس صورة الدولة المنظمة، وتوضح كذلك سياسة الحكم فيها، لذا كانت كتب التواقيع تُجهّز إلى البلاد كلها، ويلاحظ أنها توضّح بعض مظاهر الحياة الهامة من نصوص أدب، وعلاقته بالسياسة، ونعرف كذلك من خلالها صورة الحاكم المثالي كما يُفترض أن يكون، وصورة القاضي النزيه العادل، وصورة الخطيب المفوّه[٦].

---

(١) انظر القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص ١١٦.
(٢) سليم: عصر سلاطين المماليك، ق١ ج٣، ص ١٣٩.
(٣) المرجع السابق: ق١ ج٣، ص ١٣٩.
(٤) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٢.
(٥) المرجع السابق: ، ص ١١٢.
(٦) انظر باشا، عمر موسى: أدب الدولة المتتابعة، دار الفكر الحديث، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، ص ٧٩٦.

وللصفدي كثيرٌ من التواقيع ضمّتها كتابه أعيان العصر و أعوان النصر ومن هذه التواقيع نورد جزءًا من توقيع كتبه الصفدي عن السلطان، بتعيين تاج الدين بن عبد الله في استيفاء البيمارستان المنصوري:

" فإنه لما كان البيمارستان المنصوري وقف والدنا الشهيد الملك المنصوري – قدّس الله روحه ونوّر بالرضوان ضريحه – أجلّ القربات نفعًا، وأخصب المثوبات مرعى، يجري نفع أوقافه على الخاص والعام، وينفق من حواصله في اليوم ما ينفق من غيرها في العام، ... فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يرتب في استيفاء البيمارستان المبرور، وأوقافه عوضًا عن أخيه فلان، فليباشر ذلك مباشرة تجمع شتات الحزم، وتلزم ثبات العزم" [1].

يلحظ في هذا التوقيع كثرة عبارات الثناء والدعاء بالرحمة، وذلك لأن هذا البيمارستان وقفه السلطان المنصوري [2] للخاصة والعامة، فكان بهذا العمل حاتمًا في كرمه، والمسيح في علاج المرضى وإحياء الموتى، وهذا يؤكد مدى اهتمام القائمين على البيمارستان من تقديم العون لكلّ مريض.

وللصفدي توقيعٌ آخر، كتبه عن الملك الصالح بتعيين ابن بلبان في إفتاء دار العدل، وهو " رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الصالحي العمادي، لا زال شهابه لامعًا، وسحابه بالنوال هامعًا، وجنابه لأرباب العلم جامعًا، أن يرتب في كذا ركونًا إلى ما أتقنه من العلوم، وسهر له والناس نيام، بشهادة النجوم، وسكونًا إلى ما حصّله في مذهبه وحرّره، وأوضح دليله بالمباحث وقرّره" [3].

ويمضي الصفدي في بيان صفات ذلك المولّى: من إتقان للعلوم، وسهر ودأب في تحصيلها، حتى أحرز هذه المكانة، ويوصي الصفدي المولّى بتقوى الله، وذلك كونه أصبح نجيَّ الملوك " وقوله عندهم أنفس من الدّرّ المنظم في السلوك، وألفاظه عندهم حجّة في الأوامر والنواهي، وفتاويه عندها المآل وإليها التناهي" [4].

([1]) الصفدي: أعيان العصر، ١/٢٢٩ – ٢٣٠.

([2]) هو الملك المنصور سيف الدين قلاوون، كان سلطانًا حليمًا وشجاعًا من مآثره بناء البيمارستان الذي أنشأه بين القصرين، انظر ترجمته، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٢٩٢.

([3]) الصفدي: أعيان العصر، ١/٢٢٩ – ٢٠٤.

([4]) المرج السابق: ١/٢٠٥.

وقد أكثر الصفدي من التواقيع إلى حدٍّ عجيب، وكانت تواقيعه في أغلبها ارتجالاً من رأس القلم كما يخبر، وهذا دليلٌ على قدرته العالية على التأليف.

المراسيم:

" جمع مرسوم أخذًا من قولهم رسمت له كذا فارتسمه إذا امتثله، أو من قولهم رسم عليَّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعًا" [١].

وهذه المكاتبات من جنس التقاليد، إلا أنها تختلف عنها في أمور، فيذكر العمري إنها " تكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلق بولاية" [٢] ويرى القلقشندي أنها تختص بنوّاب القلاع المنصورة، وأمر العريان وشادّي البريد، ومقدمي الألوف والطبلخانات" [٣].

ومن الناحية الشكلية تختلف المراسيم عن التقاليد في عدة أمور، منها: يُقتصر في طرة المرسوم على " الأميري" دون " الكبيري" ، ويقال: " أنّ يستقر"، وليس" أن يفوّض" ، ولا أن يقال " على أجمل العوائد وأتم القواعد"، بل يقال: " على عادة من تقدمه وقاعدته"، ولا يقال في الصدر" أما بعد"، بل "وبعد"[٤].

ويورد القلقشندي رأيًا لصاحب التثقيف [٥] مفاده أنّ المراسيم لا تختلف عن التقاليد إلا في أمرين: إنها لا تكتب إلا في قطع النصف أو الثلث، وثانيها لا يقال " تقليد شريف "، بل " مرسوم شريف" [٦].

وللصفدي مرسوّم كتبه عن تنكز، نائب الشام بتولية الأمير أرغون نيابة بعلبك، ومنه: " رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني المالكي الناصري، لا زالت أوامره بالسيف ماضية، وبحدّ حجّته قاضية، أن يفوّض إليه نيابة بعلبك المحروسة والبقاعين، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته" [٧].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ١٠٧.
(٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٣.
(٣) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ١٠٧ - ١٠٨.
(٤) المرجع السابق: ج١٠٧،١١.
(٥) تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش: انظر القلقشندي، ١٠٧/١١.
(٦) المرجع السابق: ١٠٧/١١.
(٧) الصفدي: أعيان العصر، ٤٦٤/١/٤٦٥.

وفي الجزء المتقدم من المرسوم، نلحظ الشبه بين التقليد والمرسوم، فقد استخدم الصفدي عبارة أن يفوّض التي يرى القلقشندي إنها خاصة بالتقليد، ولكن في الجزء نفسه نقرأ عبارة " على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته، وهذه العبارة خاصة بالمرسوم كما تقدم، لذا نقول إنه من الصعوبة بمكان أن تضع حدودًا فاصلة بين المرسوم والتقليد من حيث الشكل المتبع في كتابته، ولعلّ الصواب ما ذكره صاحب التثقيف عندما جعل الفرق في نوعيّة الورق المستخدم والعنوان.

وللصفدي مرسومٌ كتبه عن السلطان القرمشي بن أقطون بنيابة قلعة صفد، ومنه نورد:

" فليجتهد في مراعاة أحوالها، وتفقدُّ مباشريها ورجالها، ورمّ ما تشعّث من بنائها، وإصلاح ما تحتاج إليه في ربعها وفنائها، فإنّ لها منه أيام والده المرحوم إيثارًا، وله في عمارتها آثارًا، فليجرها على ما عهدت، وليزكّها فيما له شهدتْ، ويبذل الجهد في تشييدها، ودوام تحصينها بالرجال وتخليدها، وتمثير حواصلها بالسلاح والعُدد، والغلال ... " [1].

وكما هو معهود في التقاليد والتواقيع بأمر الوصّية، فكذلك المراسيم، فهذه مجموعة من الوصايا التي حريّ الأخذ بها، فعليه أن يجهد نفسه في تتبع كلّ ما يجري في تلك الولاية، من رعايا ومستخدمين، وفوق ذلك عليه إصلاح شأنها، وتوفير كل ما يلزم من أمور لحمايتها، من رجال وعتاد، فالحصون الرجال لا غيرها.

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ المراسيم لا تختلف كثيرًا عن التقاليد والتواقيع، فجميعها رسائل تصدر عن ديوان الإنشاء، وما الفروق البسيطة التي تميزها عن بعضها إلا دليلٌ على التنظيم الدقيق، الذي امتاز به ديوان الإنشاء المملوكي.

المناشير:

" جمع منشور، والمنشور في أصل اللغة خلاف المطويّ ومنه قوله تعالى: ﴿وكتابٍ مسطورٍ في رَقَّ منشورٍ﴾ [2] وقد اصطلح كتاب العصر المملوكي

([1]) الصفدي: أعيان العصر، ٤/١٠٨/١٠٩.
([2]) سورة الطور: آية ٢،٣.

على تسميّة جميع ما يكتب في الاقطاعات، من عاليها ودانيها للأفراد، والجند، والعربان، والتركمان، وغيرهم مناشير[١].

ومن خاصيتها كما يخبر القلقشندي أنها لا تكتب إلا عن السلطان، مشمولة بخطه [٢]، ويبيّن العمري الوجه التي تكتب فيها هذه المناشير: " فهي ما يكتب للأمراء، والجند، بما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطاع" [٣]. والمناشير من الرسائل التي يصدرها الديوان إلا أن لها خصوصية تميزها عن غيرها، فهي مختصرة، ولا تحوي وصايا، وهذه عبارة العمري في هذا الشأن، حيث يقول: " وشأنه شأن ما تقدم، إلا أنّ المناشير أخصر، ولا وصايا فيها" [٤].

ومن الميزات أيضًا التي تميّزت بها المناشير كما يشير العمري بقوله: " والعادة الجارية في المصطلح أن يقال : خرج الأمر الشريف، سواء كان في أثناء المنشور، أو ابتدائه" [٥]. وهي كانت كما يصفها " لا تُكتب في أواخرها المستند، ويكتب كاتب الإنشاء إلى أن ينتهي إلى قوله أن يجري في اقطاعه"[٦].

وقد تتميز المنا شير عن بعضها، وذلك حسب ما توجَّه إليه " فقد جرت العادة أن يكتب للمناشير الكبار، لمقدمي الألون والطبلخانات – طغرا بالألقاب السلطانية، تكون فوق وصل بياض فوق البسملة، ولهذا الطغرا رجل مفرد لعملها وتحصيلها بالديوان، فإذا كتب الكاتب منشورًا أخذ من تلك الطغراوات[٧]، وألصق فيما كتب به" [٨].

وللصفدي منشورٌ كتبه عن السلطان للأمير ناصر الدين جنكلي بإمرة أحد وأربعين رمحًا، ومن ذلك " وكان المجلس السامي الأميري، وألقابه الناصري ونعوته محمد بن الجناب العالي الأميري البدري، محمد بن البابا الناصري، من قوم ندعوهم فيلبّون إلى طاعتنا مسرعين، ونرجو لفتاهم كمال المائة فإنه تجاوز

(١) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ١٦٢/١٣.
(٢) المرجع السابق: ١٦/١٣.
(٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٧.
(٤) المرجع السابق: ص ١١٧.
(٥) المرجع السابق: ص ١١٨.
(٦) المرجع السابق: ص ١١٨.
(٧) طغرا: علامة تشمل على الألقاب السلطانية وتلصق بأعلى المناشير بين الطرة والبسملة – القلقشندي، صبح الأعشى ٥٥/١ – ٥٦.
(٨) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٨ - ١١٩.

حدّ الأربعين، فهم أبطالٌ تفرق الأسود القلب من وثباتها، وفرسانٌ قوائمُ خيولهم صوالج تلعب من رؤوس العدى بكراتها في كرّاتها، وشجعان ألفوا مقاعد الخيل فكأنهم ولدوا على صهواتها، وأمراء زانوا مواكبنا السعيدة التي لا تخرج الأقمار عن هالاتها" [١].

وبما أن المنشور يخصّ أمراء الجند، فهذا يتطلب من الكاتب إبراز صفات الأمير، التي تؤهله لإمرة أولئك الجند، فهو سريع إلى ما دعاه، شجاع من قوم شجعان، لذا فقد رضع العزّ في مهده، وقد عُرف قومه بالغارة على الأعداء، فمجالسهم صهواتُ الخيل، دائبو الكرِّ والفر، لذا فقد استحق إمرة هذا العدد من الجنود" وقد اقتضت آراؤنا الشريفة تغيير إقطاعه ليتقوى حزبه على الحزب، وينفي من يكون أمامه من أبناء الطعن والضرب، وتمرح به كُمت [٢] الجياد في الأرسان، وتُشاهد في مقامات حَربه مقاتل الفرسان" [٣]

والمنشور كما تقدم في تعريفه يخصّ الاقطاعات، فلذا جاءت عبارة الصفدي: " اقتضت آراؤنا الشريفة تغيير اقطاعه ليقوى حزبه على الحرب " [٤] لتبرهن على على مدى دقة الكتابة الديوانية، التي تمثل الجانب الرسمي المنظم في زمن الكاتب، وكما هو مقرر للمنشور، كما يورد العمري ... " ولا وصايا فيها" [٥] جاء هذا المنشور، فقد ختمه الصفدي، بعبارة: " فلذلك خرج الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري – أعلاه الله تعالى وشرّفه – أن يجري في اقطاعه [٦].

وبعبارة مجملة يمكن القول إنّ الرسائل الديوانية تُعدُّ نافذة مطلة على الحياة الإدارية والسياسة، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية في الدولة المملوكية، كون تلك الرسائل تعالج هذه الأمور مجتمعة، وفوق ذلك تشير الفروق الدقيقة في إنشاء مثل تلك الرسائل إلى دقة النظام المتبع في ديوان

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ٣٨٦/٤/٣٨٧.
(٢) الكمت من الخيل ليس بأشقر ولا أدهم والكميت للذكر والأنثى سواء (ابن منظور، مادة كمت).
(٣) الصفدي: أعيان العصر، ٣٨٦/٤/٣٨٧.
(٤) المرجع السابق: ٣٨٧/٤.
(٥) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٧.
(٦) الصفدي: أعيان العصر، ٣٨٨/٤.

الإنشاء، ويعزي عمر باشا ازدهار هذه الرسائل إلى كونها لغة التخاطب بين الحكام وعمالهم ونوابهم، وإلى الحوادث التي مرت على البلاد، إضافة إلى تنظيم حياة الناس [١].

البشارات:

البشارات من أطرف رسائل الديوان كما يقول محمود رزق، لما يتاح فيها للكاتب من ألوان الوصف، والمبالغة فهو حرّ العنان طليق الخطام [٢].

ويرى محمد الدروبي أنها غالبًا ما ترتبط بمناسبة معيّنة [٣]، وكانت تكتب في مناسبات عديدة كتحرك ركب السلطان، أو عندما يهبّ السلطان بجنوده غازيًا، وعند فيضان النيل، ووفائه، وكسر خليجه، وعند ولادة مولود للسلطان[٤].

وحتى تتخذ هذه الرسائل الصّفة العامة، يجب أن تكتب بصفة العموم، لكي لا يقتصر أثرها على طائفة مخصوصة [٥]، وتُعدُّ هذه الرسائل الديوانية الرسمية، وذلك لصدورها عن الديوان فهي تتخذ الطابع الرسمي.

وقد تتداخل هذه الرسائل برسائل التهنئة، لذا قصرتُ حديثي في رسائل الصفدي على بشارات النيل، التي أكثر الكاتب من إنشائها، فضلاً عن عدم تداخلها مع الرسائل الأخرى كالتهنئة.

" جرت العادة كل سنة إذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشيرًا بذلك إلى البلاد، لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة، لم يزل كتاب الإنشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة " [٦] كما يخبر السيوطي.

ويذكر القلقشندي أنّ " هذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من

---

(١) انظر باشا: أدب الدول المتتبعة، ص ٧٩٣.
(٢) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، ق١ ج٣، ص ١٤٣.
(٣) الدروبي،محمد محمود : الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٦٠.
(٤) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، ق١ ج٣، ص ، ١٤٤١٤٣.
(٥) انظر الدروبي: الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ٦٠.
(٦) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٦٦.

قديم الزّمان، وهلمّ جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال؛ اهتمامًا بشأن النيل" [١].

ويشير سعيد عاشور إلى أنّ هناك احتفالاً سنويًا حرص المصريون بجميع طوائفهم على إحيائه، منذ فجر التاريخ حتى اليوم، وهو الاحتفال بوفاء النيل، وقد جرت العادة في الدولة المملوكية أنّ ابن السلطان هو الذي يكسر الخليج بعد اليوم التالي لوفاء النيل [٢].

وللصفدي في هذه المناسبة العديد من الرسائل التي أنشأها، وهو يعمل في ديوان الإنشاء، ومنها:

" هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تخصه بسلام يرقّ كالماء انسجامًا، ويروق كالزهر ابتسامًا وتتحفه بثناء جعل المسك له ختامًا، وضرب له على الرياض الناتجة خيامًا وتقصّ عليه من نبأ النيل الذي خصّ الله الديار المصرية بوفادة وفائه، وأغنى قطرها عن القطر فلم تحتج إلى مدّ كافه وفائه، ونزّه عن الغمام الذي إن جاد فلا بدّ له من شهقة رعدهِ ودمعة بكائه، فهي البلاد التي لا يذمّ للأمطار في جوّها مطار، ولا يُزمّ للقطار في بقعتها قطار، ولا ترمد الأنواء فيها عيون النوار، ولا تشيب بالثلوج فيها مفارق الطرق ورؤوس الجبال، ولا تبيت البروق ساهرة لمنع العيون من تعهد الخيال " [٣].

وهذه الرسائل يكون الكاتب في إنشائها ملك نفسه، لا يقيده قيد، ولا يحدّه حادّ، بل يرخي لقلمه العنان فهي أقرب إلى رسائل الوصف، ففي الجزء المتقدم من البشارة، عرض الصفدي لخصائص أرض مصر المناخية، ولكنْ بأسلوب الأديب الذي لا يسجل أحداثا مجردة، بل يضفي عليها من خياله.

ويشير الصفدي في بشارته إلى حالة الفرح الذي يكتنف الناس، إذا ما بلغ المقياس الحد المطلوب، وهو ستة عشر ذراعًا، ومن صور هذا الفرح عادة ركوب الميدان عند وفاء النيل في كلّ سنة، وهو يتكرر في كلّ سنة، ويكتب إلى جميع النوّاب، الأكابر والأصاغر، وتجهز إلى أكابر النوّاب خيول صُحبة المثال الشريف، ويرسم لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب بالكرة [٤].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣٣٢/٨.
(٢) انظر عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ١٩٧، ١٩٩.
(٣) الصفدي: أعيان العصر، ٦٢٣/٣ – ٦٢٤.
(٤) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ٣٢٦/٨.

" حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعًا وأقبلت سوابق الخيرات سراعًا، وفتح أبواب الرحمة بتخليقه [١] ، وجدّ في طلب تخليقه، وتضرع بمدّ ذراعيه إلينا، وسلم عند الوفا بأصابعه علينا، ونشر على ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره" [٢].

ويمضي الصفدي في تصوير حركة المياه عند كسر الخليج، فكأنَّ الماء لجة محيط يأخذ ما بقي في طريقه من كثبان، أو جيش يدخل في كل منزل لسلبه، يعلوه الزَّبد الذي يحجب ما بداخله، " فكسر الخليج، وقد كاد يعلوه فرح موجه، ويهيل كثيب سُدِّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة، ويجوس خلال الحنايا كأنَّ له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قسي قناطره المنكوثة، وعلا زبد حركته، ولولاه ظهرت في باطنه من بدور أناسه أشعتها المعكوسة ..." [٣].

ويأخذ الصفدي في تصوير حال الناس بعد مشاهدتهم لكسر الخليج، وهم يرفعون أكف الضراعة والشكر لله سبحانه، على هذه النعمة التي أسبغها عليهم، فيقول: " وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه" [٤].

ويشير الصفدي بهذه الرسالة الجناب العالي، فيقول: " فليأخذ الجناب العالي حظه من هذه البشرى، التي جاءت بالمنّ والمنح" [٥].

ويأمل من الجناب العالي أن يخفف على العامة في الموسم من جباية الضرائب " وليتقدم الجناب العالي بألا يحرك الميزان في هذه البشرى بالجناية لسانه، وليعطِ كلّ عامل في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في إسقاط الجباية خيانة" [٦].

---

(١) اخلولق السحاب: استوى وارتقت جوانبه وصار خليقًا للمطر (ابن منظور، لسان العرب، مادة خلق).
(٢) الصفدي: أعيان العصر، ٣/٦٢٤ – ٦٢٥.
(٣) الصفدي: أعيان العصر، ٣/٦٢٥.
(٤) المرجع السابق: ٣/٦٢٥.
(٥) الصفدي: أعيان العصر، ٣/٦٢٥.
(٦) المرجع السابق: ٣/ ٦٢٥ – ٦٢٦.

وينهي الصفدي كتابه بتقديم البشرى للجناب العالي، بهذه المناسبة " والله – تعالى – يديم الجناب العالي لقصّ الأنباء الحسنة عليه، ويُمتّعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه، بمنه وكرمه" [1].

النتائج والتوصيات:

- تبين من خلال البحث تبحر الصفدي وتمكنه في كتابه الرسائل الديوانية بأنواعها .
- الرسائل الديوانية تُعدُّ نافذة مطلة على الحياة الإدارية والسياسة، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية في الدولة المملوكية، كون تلك الرسائل تعالج هذه الأمور مجتمعة، وفوق ذلك تشير الفروق الدقيقة في إنشاء مثل تلك الرسائل إلى دقة النظام المتبع في ديوان الإنشاء .
- يوصى الباحثون بضرورة الكشف عن خزائن كتب التراث الأدبية في العصر المملوكي .

المراجع:

١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ - ١٣١٢م) – لسان العرب، دار صادر بيروت، (١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م).

٢) الحلبي، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، حسن التوسل في صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، العراق ١٩٨٠م.

٣) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن، ط١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة، القاهرة، ط١٩٦٢،١م.

(1) المرجع السابق: ٦٢٦/٣.

٥) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.

٦) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق على أبي زيد وآخرين، دار الفكر ، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٧) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، ط١(١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).

٨) العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٢٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي ١٤١٣هـ /١٩٩٣م.

٩) العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إصدار فؤاد شركين (ت١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

١٠) فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، ط١.

١١) القلقشندي، أحمد بن على (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت،ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

١٢) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.